خمسة في سيارة

مناقشة في الديمقراطية والنظام البرلماني

٧

وانكفأنا راجعين من فيشي قاصدين الى ما فوقها من جبال « الاوڤرن » مارين « برويّا » معرجين على « كليرمون » وبغيتنا بلدة صغيرة تدعى « البوربول »

وجبال هذه الولاية في فرنسا يختلف عن جبال سافواي فجبالها اقلُّ ارتفاعاً واكثر اشجاراً وواديها تنساب فيها الانهار كالحيات بهدوء وتؤدة فلا عنف الطقس في سافواي ولا برده ولا جبال الالب تصطدم بها اينما سرت

***

وفاجأ الانكليزي صديقهُ الافرنسي سائلاً : — هل تؤمن بالمياه المعدنية ؟ ولماذا احتكرتم الماء الشافي من كل داء وتقاسمتموهُ فراكم فيها بينها فهذه ماؤها يشفي من امراض الكلى وتلك من امراض المعدة وهذه تعيد الامعاء سيرتها الاولى وتلك تكسب الدم نشاطاً والاعصاب توتراً وجارتها تقوي الحلق والصدر وهكذا الى ما لانهاية لهُ حتى يخيل الينا انكم لا تموتون من كثرة ما حبتكم به الطبيعة من اسباب الحياة

الافرنسي — انك تحسدنا هذه المياه . وليس السر في الماء فقط بل في ما حولها من طبيعة فتّانة تذهب بهموم النفس وتفرّح القلب فيعود الى المرء نشاطهُ

الانكليزي — ولقد اتقنتم تجارتها

الافرنسي — ولمَ لا يكون الامر كما تقول ؟ أعظم في التجارة ان تكون في الحديد والفولاذ وبناء السفن وحياكة الصوف والقطن؟ ان لكل امرء ما اعطتهُ الطبيعة والعبرة في استثمار هبتها فاذا تركت وشأنها جاء آخرون يعرفون لها حقها فيكسبون

المصري — تعال نر مَن في شعبكما يفوق صاحبهُ قوةً وابتكاراً

الانكليزي — اني احترم الشعب الافرنسي احترامي لشعبي فليحمل كل واحد منا قول صاحبه على محمل النيّة السليمة او على محمل المزاح والمبت . ثم ادار غليونه في فمهِ وقال: اعلم ياهذا اننا قوم مولّدون لا مقلّدون . واننا اقوياء صبورون لا ذكاء لنا ولا بُعد نظر . واننا ان نجح فبهذه الصفات وبهذه السيئات . فليس النجاح وقفاً على الذكي . لا . بل هو الى الاغبياء اقرب منهُ الى الاذكياء

فخلق صاحبنا المصري في الرجل ثم ادار وجهه وحلق في الفرنساوي كأنهُ يستنجدهُ على فهم هذه المعميّات

الانكليزي — دعني افسر ما اقول — أما أنا مولدون لا مقلدون فظاهر في تاريخنا كل الظهور. نحن خلقنا ثلاثة اشياء هي كل العالم الآن — العالم المادي والعالم الادبي

المصري — ما هي

الانكليزي — اولها النظام البرلماني — هذه بدعة نحن كوّناها ووسيلة لتسير الامور نحن خلقناها بل هذا رداء فصلناهُ وخطاهُ ولا نزال نرقّع فيهِ ونجدّد رغم ما هو عليهِ من عيب — وجاءت اوربا بعدنا تحتو نحونا ومثلها كل ممالك اميركا حتى عمّ هذا النظام مشارق الارض ومغاربها

وكأني بالعالم رأى انا اثرينا وامتدّ سلطاننا فنسب الامر الى هذه الوسيلة فصارت مملكةُ تقتبسهُ الواحدة تلو الاخرى وافق مزاجها ام لم يوافق ونسي معظمها ان الوسيلة شيء والغاية شيء آخر

فنحن قوم خلقنا ربُّنا عمليين نكيّف حياتنا المادية والادبية على نظام الطبيعة الحيّ المتغير. رأينا فيما رأينا الضرائب تُجبَى منا فقلنا لا بدّ لنا من مراقبة سبل اموالنا شأن التاجر في تجارته. فبرلماننا كان ولا يزال مجلس ادارة لشركة تجارية يتناقش اعضاؤه ويمحّصون ويأخذون ويعطون توصلاً الى خير طريق لادارة الشؤون. واما ان يخطبوا فهذا ليس اصلاً عندنا بل يقوم بهِ نفر بين حين وآخر لغرض معلوم لا يلبث ان يزول . فالخطابة ليست مناقشة او مباحثة ولا تؤدي الى اقناع ولا يلجأ اليها قوم يرغبون في الوصول الى حلّ موفق في امر طارىء

بل انظر الى مقاعد النوّاب في برلماننا ترها مقاعد صفّت بزحم بعضها بعضاً فمجلس الاعضاء مزاحمين فلا يتيسر لمن يقف للكلام ان يتحرك مشيراً بيديهِ لان الغرض تمحيص الرأي لا قرْع الآذان بمنكر الاصوات

أما سوانا — ولا اقول هذا منتقداً اذ لكلّ خلقهُ — فبنى المنبر ووسّع الكرسي واحضر القلم والدواة فكثر الكلام وقل العمل

فالنظام البرلماني من أوله الى آخره نظام مساومة وهو نوع من الحكومات منقول عن الاعمال التجارية في امة تقدس التجارة ونعبر عنهُ بقولنا Government by Concession. فما ان يؤخذ وتفرَض له السلطات وتعيَّن ساعة في الامة وساعة في الناخب وساعة في

الرأي العام فاسر ما خطر لنا عند ما أوجدناه بيان

المصري — اني ارى علة نجاح نظامكم في هذه الروح التجارية في اعمالكم وهي روح شريفة عندكم لان اساسها الصدق في المعاملة . والفضل في اذاعة فائدتها عائد الى فيلسوفكم باكون . اما عندنا فالتجارة غير محترمة ولا اعلم اذا كان السبب في اخلاق التجار او في اننا لم نفهم حقيقة التجارة كما تفهمونها. فانتم بتجارتكم تخلقون ثروة تبعونها ثم تنفقون عن سعة. اما نحن فمياسرة تتوسط بين المنتج والمستهلك ونقل ايدينا الى عنقنا . فقرانا وقد ورثنا مذهب ابن خلدون فلا يأبه للتجارة ولا لغير التاجر التفاتاً مخافة ان تلصق بنا الاوصاف التي اختصه بها فيلسوفنا ابن خلدون (١)

الافرنسي — (مخاطباً الانكليزي) وانا غير مؤمن بالنظام البرلماني كله فاني لا ارى في هذه البرلمانات الا مؤامرات على تولي الحكم واحزاباً ترمي الى زعامة هذا او ذاك. وكل ذلك على حساب هذا الرجل المسكين دافع الضرائب واسمهُ « الجمهور »

المصري — اعودةٌ اذن الى الاستبداد والى الحكم المطلق ؟

الافرنسي — أفإن قلّلنا من ضوضاء البرلمان او من سلطانه تُتّهم بالعودة الى الحكم المطلق — لا — لا — انا نبغي اداة صالحة لتسيير امور الناس على أفضل سبيل وارخصه. فكما تطورنا من نظام الى نظام قبلاً هكذا نلبث نغير ونبدل على ما يوافق منافعنا

ولماذا هذا العدد من المنتخبين ؟ أخلصا ملوكنا لنجعل من كل عضو ملكاً تنفق عليه عن سعة

الانكليزي — لماذا لا يقوم نظام المجالس البلدية في كل بلدة ولماذا هذا الغرام بالوحدة وبالسلطة. اذا فهم الناس ان الوظيفة العامة معناها الخدمة لا السلطان استراحت البشرية . وليس من سبيل الى هذا التفهم الا بتنوير الجمهور ليحسن الدفاع عن مرافقه وليوقف خدامهُ على حدودهم لا يتعدونها . سواء كانوا افراداً او جماعات

الافرنسي — ذكرت الخطابة منتقداً ولكنكم انتم الانكليز لا تشكون منها شكوانا نحن . فعندي ان لا دواء لداء الجماعات الا الناء الخطابة — قللوا من الكلام تقللوا الضلال . واي فائدة ترجى من خطب حماسية عقباها تضليل الجماعات ودفعهم وراء العواصف والاهواء

(١) راجع مقدمة ابن خلدون الفصل (في ان عنق التجار بعيدة عن خلق الاشراف والملوك)

ولا تخلط الخطابة بحسن البيان فهذا يستدعي منطقاً وحجة وعقلاً — امور لا تتوافر الاَّ في جوّ هادئ من المناقشة لا تأبه به الجماهير

الانكليزي — ولا تنسَ الصحافة فمعظمها في هذه الايام ادوات دعاية فتضليل وسواء أرحم الله نور تكليف ام لم يرحمهُ فهو الذي ادصلها الى ما هي عليهِ الآن

المصري — (في سره) والله ان هؤلاء القوم ينطقون عما افكر انا فيهِ من زمان ولا اجسر ان اجاهر بهِ مخافة ان اتهم بشرقيتي الجاهلة المتقهقرة. (بصوت عالٍ) وماذا تصفون لهذه العلل

الافرنسي — تنوير الجمهور باعطائهِ الحرية التامة في امورهِ الشخصية والاكثار من العلوم الطبيعية في المدارس. ماذا اقول بل جعل العلوم الطبيعية اساس التعليم وغايتهُ. ليجرب الناس هذا بضع سنين ترَ السياسيين الافاقين كيف ينقلبون

المصري — ان اعظم اثر تركتهُ في نفسي مشاهداتي الاوربية عدم اكتراث الناس لرجال السياسة الاَّ من نبغ منهم وخدم خدمة عامة معروفة وهؤلاء لا يكادون يعدون على اصابع اليد الواحدة فترى الناس عندكم الآن يبجّلون الكاتب المفكر ويحترمون العالم العامل ويصفقون للممثل البارع ويثنون على التاجر المجتهد ولا يبالون بالسياسيين وهذا امر ما كنت اتوقعهُ لشدة ما نحن عليهِ في بلادنا من الاهتمام بالسياسة وعدّها السياسة من شعوذة. ولا تاقرن كل اعمالكم باعمال رجال سياستكم

السيدة الافرنسية ضاحكة — ذكرت لنا يا سيدي (تخاطب الانكليزي) اول الامور الثلاثة المختارة فما هو ثانيها

الانكليزي — الامبراطورية البريطانية! فهذا ملكٌ ما بنى مثلهُ البانون من قبل ضخامة واتساعاً وارتباطاً وتفككاً. شيدناهُ بجهدنا وبدمنا ما قدرنا فيهِ احداً ولا اتبعنا خطوات الغير. انا بنيناهُ حجراً فوق حجر بصلابة العزم ومتانة القصد كهذا الكلب bulldog اذا امسك باسنانهِ لم يفلت

وقد قلت لكم انا قوم خالون من الذكاء وبعد النظر فانهُ لو كنا على شيء من هذا لحسبنا الحساب واخذنا العدة للامور ولكننا لا نفعل. بل نأخذ بتلابيب الامر بكل ما اوتينا من قوة فاما النجاح او الموت

وهل لك كالحرب العظمى دليلاً على غفلتنا. فانهُ لو كنا يبدي النظر شديدي الذكاء لعلمنا ان الحرب ويل علينا اكثر مما هي على اعدائنا ولاقلعنا عن

خوض غمارها . بل كنا اخذنا لها العدة . ولكننا بدأناها فلم نتركها الاّ وقد فزنا ولكنها ضربتنا وهدّمت كياننا الاقتصادي

قل للانكليزي ما شئت من آيات الوطنية واستنجدهُ بكل دواعي الشرف فلا تحرك لهُ ساكناً

انما أبلغهُ ان لعبة من الالعاب الرياضية لم يتقنها بعض الناس واساءوا فيها المعاملة وخالفوا القانون فانك تقيم الامبراطورية البريطانية وتقعدها [1] . وكأن صاحبنا استلذّ حديث امره فأكملهُ وقال

واما الامر الثالث الذي اوجدناهُ فهو الصناعة . نحن الذين جعلنا بلادنا معامل ومصانع تقذف بمختلف البضائع في اسواق العالم . ولم يكن قبلنا شيء اسمهُ صناعة بالمعنى المعروف فما لبثت اوربا واميركا ان اقتفت آثارنا واهملت الزراعة حتى انك تكاد تحسب القارة الاوربية قد انقلبت مصلاً واحداً لجميع ادوات الحياة

الافرنسي — الاّ نحن فلا نزال نجمع بين الامرين . وها هوذا العالم قد زاحمكم وكاد يقضي على صناعتكم . فقد كنتم الوحيدين فاصبحتم وكل العالم يشاركم . فاذا انتم صانعون

الانكليزي — لا اعلم . ولكني شديد الايمان بقوة شعبي فلن يعدم وسيلة تخرجهُ من هذه الازمة فنحن لا نتمسك بشيء بل نجرّب كل شيء . فقد نحول مصانعنا الى غير ما وضعت لهُ وقد نلجأ الى نظام اشتراكي يهم العالم نحن الذين يتهمنا الناس بالانانية

المصري — لقد طال عليكم القدم فاصبحتم اجداداً لكم اولاد حلّوا محلكم وآن لكم ان تحالوا الى المعاش

***

واقتربت السيارة من ضواحي البوربول وملّت السيدتان الكلام السياسي الاجتماعي فقالت احداهما للاخرى ما قولك لو نزلنا هنا وقصدنا الى البوربول راجلتين تاركتين الرجال في حديثهم . فالمسافة قصيرة والطريق سهل . فأبى الرجال عليهما ان تفارقاهم وقالوا بل تمتنع عن الكلام بل نعمد الى الرقص ان شئتما . قالتا بل تنزلون ونذهب كلنا مشاة . فقد ملئنا القعود واضنانا الجلوس — فكان امراً مقضيًا

سامي الجريديني

(١) راجع كتاب : Le Silence du Col. Bramble par André Maurois